المقهى

قصة بقلم عبد الرحمن الربيعي

ارتكن السيد فاهم فرهود العلي في طرف من اريكة خشبية رصفت على جدار رصاصي حال لونه الى غبرة باهتة في مقهى عليوي. وكانت عجيزته ترتكز على بساط صوفي مزركش من منتجات القرى المحيطة بالمدينة .. الوانه خليطة من الالوان البدائية الخام التي لم تقتل حدتها ولم تراع في رصفها قواعد الانسجام بين الالوان .

وكان يضع يده على خده ، أما عيناه فتقرآن مناخ المقهى ثم تنسحبان لتتوسدا وجوه أصحابه الثلاثة ، حيث جلس عبد الرضا في الركن الاخر من اريكته بينما تقاسم جبار وصباح الجلوس على الاريكة المقابلة، وقد دست بين الاريكتين طاولة وضع فوقها وعاء ماء من الصفيح وطاسة نحاسية صفراء حفرت على جوانبها آيات قرآنية واسماء ائمة وصالحين، وهذا الطراز من أواني الشرب التي كادت ان تنقرض تقريبا ولم تعد مستعملة الا ببعض المقاهي القديمة ذات الطابع الخاص كمقهى عليوي هذا .

يزن السيد فاهم فرهود العلي حوالي الخمسين كيلو غراما رغم قامته التي تميل الى الامتداد . وهو يشكل المعاكس التام لهيكل عبدالرضا زميله في المستشفى ، وعندما يخرجان معا بعد انتهاء الدوام وقت الظهيرة فان منظرهما يبدو مفارقة عجيبة : عبد الرضا بقامته القصيرة التي احتشك فيها الشحم واللحم بلا حساب . وبطنه التي تتقدمه سابحة في الفراغ مختضة كوعاء اللبن المصنوع من جلد الاغنام والماعز ، وتحته تدب ساقان قصيرتان بخطوات ذات وقع قاس على الاسفلت ، والسيد فاهم بقامته الرمحية الضامرة المغروسة في وسط الشارع كعلامة عن الحيف الذي لحق بالمدينة في عهود الظلم والاستبداد التي عرفتها في ايامها الاولى .

كان السيد فاهم يبدو كالاخيذ المرتجف الاوصال رغم مظهره النظيف .. الوجه الابيض الحليق بعناية ، فيبدو ضموره واصفراره مجسدا من وراء بشرته الصافية التي يظهر عليها احيانا بهاق طفيف سرعان ما يتوارى بعد أن يمسحه بقطعة قطن مغمسة بالكحول .. وجهه هذا يحمل تلك السمة التي نعرفها في وجوه مدمني العادة السرية والخمرة والسهر الطويل في هذه المدينة المقفلة التي عجز شبانها عن آن يجدوا ما يملأ لحظات فراغهم الرهيبة فانكفأوا الى آبار الداخل غاطسين في مياهها المالحة التي تطفىء بريد العيون وتأكل الجلد دون ان يأملوا في قطرة ماء فرات تنضح بها الارض الجلحاء فتغرس الخصب في حقل او الندى على شفة .

انيق جدا ، انسيد فاهم هذا قياسا الى زملائه الثلاثة الذين يؤطرونه الان باجسادهم واحاديثهم .. بنطاله ازرق غامق مكوي بعناية ، وقميصه أبيض كانه قد غسل بمسحوق قاصر ليأتي على كل ما علق به من اوساخ تخلفها نهارات هذه المدينة المتربة ، وفوق شفتيه المبرومتين ترك المجال لنحو شاربين قصت اطرافهما ، فيذكر منظرهما من يراهما لاول مرة بذلك الطراز من الشوارب الذي عرفه رجال المدينة في سنوات الاربعينات يوم كانت صور هتلر تظهر كثيرا في الصحف حيث تتحدث الانباء عن انتصاراته وانكساراته التي لا تهدأ ، وقد انتهت هذه الموضة بعد آن ظهرت تلك الشوارب الجميلة والانيقة التي تنتف شعيراتها الزائدة بملقط خاص فتبدو وكأنها مرسومة بعناية فائقة ، وقد عرفها رجال المدينة في الخمسينات من خلال افلام انور وجدي وكلارك كيبل التي كثيرا ما تعرضها آسينما الوحيدة في المدينة . ولكن السيد فاهم ما زال محتفظا بهذا الطراز من الشوارب رغم انقراض موضته ، ونظرا لغرابة التصاقها في وجهه وعدم تجانسها مع ملامحه فهي تدفع بضحكة مفاجئة لفم من يراها . هكذا يطلق الضحكة بلا تبصر في الاحراج الذي تورثه للسيد فاهم ، ولن تفلح كل محاولاته في كبتها وراء شفتيه المزمومتين .. ولكن السيد فاهم لم يدرك آن السبب كامن في هذين الشاربين اللقيطين ، وانه لو اقدم على محوهما من الوجود وحصدهما من الجذور كما يفعل اصحابه الثلاثة عبد الرضا وصباح وجبار لما تعرض لمثل هذه المتاعب التي تدفعه حثيثا للانزواء والاحتجاب التدريجي عن عالم المدينة الباحث عن أتفه المبررات للضحك او البكاء .

كان الوقت ضحى من يوم جمعة صيفي . ومقهى عليوي الواسع الواقع على تقاطع اكبر شارعين في سوق المدينة قد بدأ يستقبل رواده وجلهم من الموظفين والطلبة لتبدأ فورة الدومينو والطاولة والتعليقات وبخار الشاي وقرقعة الملاعق . وكان السيد فاهم واصحابه قد بكروا بالحضور بعد ان تجولوا بعض الوقت في شوارع المدينة واسواقها المكتسية باردية اللافتات الملونة التي تؤيد الثورة وتبتهج لانتصارها بعد ان حلت عارمة مسقطة ذلك التاريخ المرير .. الملك والوصي .. حلف بغداد .. نوري السعيد .. التاج والعرش .. الجواسيس والعملاء . وكان جبار وصباح يحلقان في سماء فرحة كبيرة فقد ادركا بأن متاعبهما الاولى قد انتهت ، وان تلك الانتهاكات والمطاردات قد اصبحت صفحات ميتة في تاريخ منطو . وكانت لهجتهما المهرجة وهما يتبادلان النكات والاحاديث تعلن عن هذا الفرح الذي لا يطيقان كتمانه ابدا . اما السيد فاهم فهو لصيقهما الذي لا يفارق

مجلسهما منذ ان تعرف عليهما قبل سنوات عن طريق عبدالرضا صديقهما وزميله في المستشفى حيث يعمل السيد فاهم محللا مختبريا ، يزرع عينيه في مجهر دقيق فاحصا دما أو بولا او غائطا لمرضى المدينةالكثيرين المعتصرين بالزحار والسل وفقر الدم والبلهارسيا ، ورغم اندفاعه في عمله فان السخرية منه لن تتوقف حتى في هذا الميدان وغالبا ما يجيئونه بماء ملون في زجاجات ليفحصه على اساس انه بول . وقد سقط مرة في الفخ فكتب ان صاحبه مصاب بالبلهارسيا فكانت نكتة ضحك لها كل موظفي المستشفى ووصل صداها حتى الى بعضمرضاه، تندر كبير أحاطوه به ، وهو جزء من طقوس هذه المدينة الباحثة عن متنفس لها ، ولذلك فقد السيد فاهم حتى اوهن الآمال في ان يجد من ترتضي به زوجا يحملها الى بيته الصغير الواقع فيأحد منعطفات شارع الحبوبي حيث امه وأخوه الصغير هما كل من تبقى له من عائلته بعد ان استل الموت رؤوسها واحدا بعد آخر .

تردد أمه غالبا :

ـ أريد ان تتزوج وافرح لك قبل موتي .

ويجيبها بصوته المتكاسل المخذول :

ـ يومك بعيد يا ماما .. لا تتعجلي الامور .. كل شيء ياتي في وقته المناسب .

ويهب أخوه الصغير من وراء قراءته المدرسية ويتساءل بفرح :

ـ وهل ستأتي بمغنين ؟

فتقول الام :

ـ ان شاء الله .

ويعود صوت الاخ الفرح ليردد :

ـ مثل زواج حسين ابن الحاج مهدي :

فتضع الام يدها على شعره وهي تهمس بصوت كالصلاة :

ـ واكثر يا حبيبي .

أحاديث يومية تتكرر فتسوره وتوجه حياته وجهة واحدة فقط هي البحث عن زوجة .. الديدن والامل في هذه الحياة التي تكثر فيها احلام الرجال ومشاريعهم فتاكلهم السنون دون ان يحققوا الا النزر اليسير منها . ويوم يجد السيد فاهم من ترتضي به ستختفي هذه الاحاديث وتكف عن قرع طبلتيأذنيه كالالحان الهمجية .. سيتزوج اية واحدة حتى لو كانت كلبة ، هذا ما يردده في اعماقه ولم يتوان يوما عن اعلانه امام عبد الرضا بعد أن شرب زجاجة بيرة باكملها .

وقد حاول السيد فاهم التحرك مرارا ولكن محاولاته كانت تبوء بالفشل ، واحدة حلل لها دمها ، كانت تمازحه وتبتسم بخفة شجعته على التحدث معها وتمديد عملية التحليل الى اكثر من ساعة . وعندما خرجت أراد ان يتعقبها ليعرف مكان بيتها ولكنه وجد صديقها في انتظارها بباب المستشفى . وثانية تجرأ فارسل احدى الممرضات لاخذ رايها فاكتفت بان ردت ضاحكة بهزء . وثالثة كلف عبدالرضا في ان يرسل زوجته لتطلب يدها له فاعتذرت لخلاف المذهب بينهما. ومرة طلب من صباح وجبار أن يبحثا له عن معلمة ليتزوجها معللا طلبه بان الحياة المعاشية قاسية وراتبه لا يكفي لزوجة وام واخ،فأجاب صباح متندرا :

ـ لو كانت هناك معلمة فيها مواصفات الزوجة الناجحة لتزوجتها قبلك . ويعلق جبار بمزاح ايضا :

ـ انتظر حتى أتزوج ثم أزوجك باخت زوجتي .

وكان يحب ممازحاتهما هذه التي غالبا ما يعقبها عطفحقيقي وصداقة يمكن الارتكان اليها في هذه المدينة التي بدأت تفقد نقاءها القديم الذي كثيرا ما يتحدث عنه الاباء والاجداد .

قال صباح وهو يرفع رأسه الى اعلى متنفسا بعمق :

ـ آه : من يصدق ؟

ثم أطلق ذراعيه بحركة رياضية بطيئة واضاف :

ـ من يصدق ان ذلك العهد قد ولى هو ومليكه وجواسيسه :

فرد على تساؤله صوت جبار بصرامته الثورية القديمة :

ـ شيء متوقع يا صديقي ،هذا البلد مهيأ للثورة منذسنوات ، وقد شهد تاريخه عشرات الانتفاضات . وعندما حدثت تلفتهـا العيون والافئدة .

وعلق عبد الرضا من وراء بطنه المندلعة أمامه :

ـ أتدرون ؟ لقد اطلق سراح ايوب ابن خالتي .

فأجابوا بصوت واحد .

ـ لم تخبرنا بهذا من قبل :

وهنا نطق السيد فاهم من اعماق صمته المحتقن :

ـ أتدعونا اذن الى وليمة ؟

فعقبوا على سؤاله مؤيدين :

ـ سؤال وجيه .

فأجاب عبد الرضا ولهاثه الساخن يسبق كلماته :

ـ ابشروا ، اليوم في نادي الموظفين .

واعترض صباح :

ـ لا نريد اكل النادي ، ما زال طعم « دولة » زوجتك تحت لساني .

يا لها من طباخة مدهشة !

فأجاب عبد الرضا باستسلام :

ـ حسنا . ولكن ليس اليوم .

وصفق صباح بيده :

ـ المهم أن الوليمة ستتحقق .

وقاطعه جبار :

ـ ولكن لا بد من قدح عرق أو زجاجة بيرة قبل الاكل لتسهيل عملية الهضم .

ورفع عبد الرضا جذعه آنذاك ، وباعد ما بين ساقيه القصيرتين الممددتين امامه . ثم قال :

ـ زوجتي مصلية كما تعرفون ، ولا تريدني أن ادخل الخمرة في البيت .

وعلق فاهم :

ـ سنشرب في النادي ثم نتعشى في بيتك .

فوجدوا في رأيه حلا مقبولا ، واهتزت رؤوسهم بالموافقة ، تبع ذلك صوت صباح وهو يردد :

ـ كلام السيد فاهم كله من ذهب هذه الليلة :

ففمزه جبار بعينه وهو يقول بخبث :

ـ ومتى كان غير ذلك ؟

* * *

أخذ رواد المقهى بالتقاطر في هذا اليوم الصيفي اللاهب ،وازداد دوران المراوح السقفية الكثيرة في فضاء المقهى . وشرعت كلالابواب الجانبية لتبديل سخونة الهواء .

وبدأ عبدالرضا بالتطلع الى ستوديو التصوير المقابل له على الطرف الثاني من الشارع ، وتذكر ان دائرته قد طلبت منه صورتين لملء استمارة الانتماء للجمعية الاستهلاكية ولكنه تكاسل عن القيامبعبور الشارع والتقاط الصور المطلوبة . واقتنع في داخله بتاجيل ذلك الى مناسبة اخرى .

ودبت الحركة في الشارع الجانبي المؤدي الى النهر ، واحتمى البعض تحت أفياء الاشجار التي تضمها الحديقة الطويلة التي تقسم الشارع العريض الى نصفين وتنتهي بقاعدة اسمنتية نصب فوقها تمثال من الجبس مطلي باللون الاسود يمثل آسد « أريدو » مستريحا على قائمتيه الخلفيتين باسطا ساعديه امامه ومتهيئا للوثب ، وبدا لعيني عبد الرضا من بعيد ككتلة سوداء متسخة وسط خضرة أشجار الكالبتوس والصفصاف والدفلى المحيطة به .

اقترح صباح على جبار أن يباشرا بلعبة دومينو يدفع فيها الخاسر ثمن تذاكر السينما لهذا المساء . ثم أضاف :

ـ ما دامت دعوة الاستاذ عبد الرضا قد أجلت .

وتساءل عبد الرضا :

ـ أي فيلم ؟

وعاد صوت صباح الى القول :

ـ فيلم هندي . قال عنه مدير مدرستنا ان كل شيء فيه يغني ويرقص حتى القطارات والجدران .

وتذكر جبار تعليقا مشابها سمعه مرة من احد اصدقائه الذين عملوا في الهند بتجارة الخيول :

ـ أفلام الهنود تزوير لحيانهم الحقيقية .

وكان جوابه عليه بقوله :

ـ مثل افلامنا العربية .

فانطلق صوت ذلك الصديق مرددا بنبرة متألمة :

ـ مثل كل شيء في حياتنا ، وليس في افلامنا فقط .

ونطق عبدالرضا قائلا :

ـ انه أفضل من المقهى أو النادي على اية حال . نحن تحت رحمة « كزار » صاحب السينما وذوقه وحده الذي يتحكم فينا .

وعلق صباح :

ـ آمرنا لله ، لنتقبل الامر اذن ، ولكن يبدو لي ان ذوق «كزار» هندي هذه الايام مئة في المئة ؟

وقهقهت حناجرهم بالضحك . وعاد صوت صباح الى القول موجها كلماته الى جبار :

ـ ماذا قلت ؟ ألا تلعب ؟

فتمتم صباح :

ـ حسنا .

ثم التفت الى نادل المقهى طالبا منه ان يحضر الدومينو ولكنه رد معتذرا :

ـ آسف ، كلها مشغولة .. اليوم جمعة واللاعبون كثار .

وارتفع صوت جبار قائلا :

ـ حسنا ، هات لنا شايا اذن .

*

مر « شنيشل » بقامته السوداء الطويلة طاويا دشداشته ومعلقا لاطرافها بحزام جلدي عريض ، وكان يحمل على كتفيه خشبة عريضة لصقت فيها صور مشاهد من الفيلم ، وكان يجأر بصوته المهرج :

ـ هذه الليلة .. شاهدوا اعظم الافلام الهندية .. فيلم المغامرات والرقص المثير .. بطولة الممثل المحبوب شامي كابور ..

ثم ابتلع الشارع الصاخب نداءه ، واختلط بنداءات باعة اخرين تعرض بضاعتها على الزبائن .

وكان البشر يتوسد الوجوه الآمنة ، ويوقد في حناجرها رنين حماس غريب لم تعرفه في تلك الايام المبادة التي بدأ انحسارها كالحلم الذي لا تصدق وقوعه العين .

وكان رجال الشرطة والمخبرون يمرون بين العابرين مطأطئي الرؤوس شاعرين بانتفاء ادوارهم في اذلال هذه المدينة الآمنة التي كم قدمت من تضحيات وقمع كل كلمة احتجاج يطلقونها ضد مذليهم .

والتقطت عينا صباح وجه مخبر ذليل . كان يلاحقهم على دراجته منذ ان كانوا طلابا في دار المعلمين ، ويرفع عنهم التقارير السرية لرؤسائه . وقال مشيرا اليه بسبابته :

ـ انظروا .. هذا « عتيوي » الكلب .. كيف يزرع انفه فيوحل الرصيف دون أن ترتفع اليه يد بالتحية او وجه بالابتسام .

وعلق جبار :

ـ أتحقد عليه لهذا الحد ؟

ـ بودي لو اشرب دمه .

ونطق جبار بصوت حكيم :

ـ انه مسكين ، أداة غبية ، لا يعرف خطورة ما كان يقوم به ، يجب ان نغسل دماغه .

وتساءل صباح بتهكم :

ـ لماذا لا تنظمه أيضا :

وقال عبد الرضا :

ـ هؤلاء مثل البيضة الفاسدة ، الحل الوحيد ان ترمى في صندوق القمامة . وكان رد عبد الرضا حاسما اتجه بعده حديثهم وجهة اخرى، حيث استعرضوا تاريخ مدينتهم السياسي .. المظاهرات ... الاضرابات .. الاحزاب .. المخبرون السريون .

وكان صباح وجبار خبيرين بهذا التاريخ فقد اندمجا في عالم المدينة السياسي وتنظيماتها السرية منذ ان كانا طالبين في المتوسطة. وتدرجا في مناصب حزبية متقاربة ، ولكن القبض القي على صباح قبل سنتين من هذا التاريخ ونقل الى سجن الكوت بعد ان حكم عليه بالسجن ستة شهور في محكمة عسكرية صورية . أما جبار فلم يعرف غير اعتقالات بسيطة أطولها امتد الى سبعة ايام . وكانت تعقب كل هزة سياسية في البلد او الوطن العربي ... خمسة ايام بعد توقيع حلف بغداد ... واسبوع في التظاهرات التي اكتسحت المدينة يوم الاعتداء الثلاثي على الشقيقة مصر .

قال عبدالرضا ويده تمسد بطنه الكبيرة وكأنها تطمئنها ان وقت الغداء قد بدأ يقترب :

ـ أما انا فلم يتحرش بي احد والحمد لله ، على الرغم من انني املك صحيفة اعمال في دائرة الامن تشير الى انني من ارباب السوابق السياسية .

ثم ابتلع ريقه وهو يأخذ رشفة من شايه :

ـ وكل هذا بسببكما أنتما .

وأشار بيده الى صباح وجبار الجالسين قبالته ، مما حدا بصباح لان يقول :

ـ المهم اننا جعلنا لحياتك معنى بعد ان كانت فارغة ليس فيها غير زرق الابر ولف الضمادات .

واضاف جبار معلقا على قول عبد الرضا :

ـ كان الحكام حائرين في ايامهم الاخيرة ، اتذكرون معاون الشرطة الذي جاؤوا به من الموصل قبل الثورة بايام خصيصا لقمعنا ؟ انه لم يستطع البقاء هنا اكثر من اسبوعين ولي بعدها هاربا .. لقد تسلق شبابنا داره في منتصف الليل وكموا فمه ولم يتركوا جزءا من جسده سالما .

وقطع صباح كلام صاحبه قائلا :

ـ اتدرون ؟ دعوني اكشف لكم سرا الان .

وتطلعوا اليه بفضول ، حتى السيد فاهم رفع عينيه من غفوتهما وتركهما تشخصان بانتظار امام وجهه ، فتابع :

ـ لقد كنت احد هؤلاء الذين تسلقوا بيت معاون الشرطة، وليتكم رأيتم وضعه عندما أمسكنا به وسحقنا كل غطرسته وتكالبه ، وظل يئن تحت اقدامنا كالكلب الذليل ؟

ـ مدينة صامدة ، من كان يتصور هذا ؟!

وعاد صباح الى القول :

ـ لم نفعل به ما فعل بأبناء مدينتنا ، كانت اخلاقنا اكبر من أن نضع العصا في استه كما فعل باحد الطلبة .

واضافت الافواه تعليقات اخرى على هذا الحديث ، وانطلقت الكلمات مغمسة برشفات الشاي الساخن اللذيذ الذي عرف به هذا المقهى .

اما السيد فاهم فقد عاد ثانية الى جلسته الاولى بعد ان استمع الى ما آسر به صباح ، وعادت يده لتستند الى خده ، وعيناه الى التلصص والمراقبة الغائمة ، وبين فترة واخرى ترتفع يده بالمنديل لتمسح العرق المتجمع في ثنايا رقعة شاربيه الغريبين ، وكان قد نسي شايه دون ان ينتبه اليه ، فالتفت اليه عبدالرضا قائلا :

ـ الا تشرب شايك ؟

فرفع رأسه وكأنه قد صحا من غفوة طويلة ، وامتدت يده الناحلة البيضاء ، بأصابعها الطويلة المرتجفة ، وحملت قدح الشاي وهي تختض هزيلة ، وكاد القدح ان يسقط منها فتلقفه باليد الاخرى ، واخذ يشرب محتوياته بتمهل وكأنه يؤدي طقوسا ثقيلة .

وكان عبد الرضا يراقبه حتى انتهى من احتساء شايه ، اعتدل في جلسته وقال موجها سؤاله الى صباح وجبار :

ـ لقد تحدثنا جميعنا عن حالتنا قبل الثورة وما فعلناه، ولكن السيد فاهم لم يعلق بكلمة ولم يخبرنا بما صنعه ؟

وارتفع صوت جبار بالتأييد :

ـ سؤال وجيه .

وعقب صباح :

ـ يجب ان تبيعنا ايضا ولا تكتفي بدور الشاري فقط .

وطوقته هذه التعليقات فأوقدت الحماس في جسده الضامر . واجرت نسغا من البشر في اهابه الشاحب .

رفع رأسه ثم سحب ساقيه ووضع احداهما فوق الاخرى ، واسند يديه الى سطح الطاولة التي تفصل اريكته عن اريكة صباح وجبار ، صمت بعض الوقت كالمفكر ثم ردد وكأنه يحدث نفسه :

ـ كانت عندنا صورة كبيرة للملك معلقة في غرفة الضيوف كان والدي رحمه الله يعتز بها كل الاعتزاز وبين فترة واخرى يمسح زجاجها واطارها من التراب العالق بها .

ثم فتح يديه على سعتهما مشيرا الى حجم الصورة وهو يتابع:

ـ وذات يوم عدت الى البيت حانقا مما اصادفه فأغلقت الباب والنوافذ جيدا ، ودلفت الى غرفة الضيوف ووقفت امام الصورة وخاطبتها بألم : لولاك ايها الملك الصغير لكان كل شيء على ما يرام ولما تعرضت لهذه المتاعب الكثيرة .

وعاد فجمع يديه ثم طرحهما على الطاولة ثانية وهو يتابع :

ـ ولكن امي اسرعت وكمت فمي ، ولم تدعني احطم هذه الصورة ، وكانت تتوسل بي باكية وهي تقول : ماما فاهم لا تتدخل بالسياسة بعد مخافة ان يسمعك رجال الشرطة ويأخذوك الى السجن وآنذاك من لي انا وأخوك ؟

بغداد

عبد الرحمن مجيد الربيعي

ثورة الأمل

تأليف الفيلسوف الاميركي

اريك فروم

ترجمة ذوقان قرقوط

في هذا الكتاب ، وهو آخر ما ألف عالم النفس الاميركي المعروف اريك فروم ، يواجه المؤلف فوضى العالم الحالية واضطراباته ، فيجد بالرغم من كل شيء اسبابا وجيهة للامل .. ان « الغليان والرفض » ، حتى بشكلهما العنيف وغير المنظم ، يأتيان في الوقت المناسب لالزام العالم بان يحل ، او يحاول على الاقل ان يحل المشكلة المقلقة التي نجمت عن نمو المجتمع التكنيكي على حساب النزعة الانسانية . بل ان اريك فروم يذهب الى حد أن يقترح ، من اجل ذلك ، مخططات حلول تستطيع في رأيه ان تخرج « ثورة الامل » من الفوضى والعماء ...

صدر حديثا